رواية قصيرة

اسحق دنسن

(كارن بليكسن)

ترجمة: أماني لازار

تحرير: محمد سالم

Telegram:@mbooks90

بابيت وليمة

Babettes gæstebud

Babette's Feast

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(1)

سيدتان من «بارليفوج»

يوجد في النِّرويج زقاقٌ بحري يدعى زقاق «بارليفوج»، ذراع بحرية طويلة وضيِّقة تمتد بين جبال شاهقة. تبدو بلدة «بارليفوج» الصَّغيرة عند سفوح الجبال مثل دمية للأطفال، تتشكّل من قطع خشبية صغيرة مطليَّة بالرمادي، والأصفر، والزهري، وعديد من الألوان الأخرى.

قبل خمسة وستين عاماً كانت هناك سيدتان مسنتان تقيمان في أحد المنازل الصَّفراء. في ذلك الحين، ارتدت السيدات المنافخ التي ربما كان في وسع الأختين ارتداءها بأناقة مثل أي واحدة منهن، إذ كانتا رشيقتين ممشوقتي القوام. لكنهما لم تمتلكا أي لباس يحاكي الموضة فاقتصرت ألوان ملابسهما، باحتشام، على الرمادي والأسود طوال حياتيهما. عند تعميدهما، أُطلق عليهما اسمي «مارتين» و«فيليبا»، على اسم «مارتن لوثر» وصديقه «فيليب ميلانكتون». كان والدهما عميداً للكهنة ورسولاً شهيراً ومَثار إعجاب في شتَّى أنحاء النرويج. أسَّس ملَّة أو حزباً دينيّاً ورعاً زهد أعضاؤه بمتع هذا العالم؛ فالأرض وكلُّ ما عليها، لم تكن -بالنسبة إليهم- سوى نوع من الوهم، وأورشليم الجديدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الواقع الحقيقي الذي كانوا يتوقون إليه. لم يقسموا باسم الرب بتاتاً، وكان كلامهم: «نعم نعم» و«لا لا». كما خاطبوا بعضهم بعضًا دائماً بـ: «أخي» و«أختي».

تزوَّج العميد في وقت متأخر من حياته، وبعد مضي زمن على وفاته، أخذ عدد مريديه يتناقص عاماً بعد عام، كما ازدادوا شيباً أو صلعاً وضعفاً في السَّمع. صاروا نكدين بعض الشَّيء ومشاكسين أيضاً، لذا كان مقدراً لتلك الانشقاقات الصَّغيرة الحزينة أن تظهر في الرعيَّة. لكنهم مع ذلك بقوا يجتمعون لقراءة نصِّ الكتاب المقدَّس وتأويله. جميعهم عرفوا ابنتي العميد منذ صغرهما، وكانتا في نظرهم، حتى هذه اللحظة، أختين فتيتين للغاية، وعزيزتين لخاطر والدهما العزيز. كانوا يشعرون، في المنزل الأصفر، أن روح معلمهم ترافقهم، هنا كانوا في بيتهم، وفي سلام.

كان لهاتين السَّيدتين خادمة فرنسية تُدعى «بابِت»، تؤدِّي لهما جميع الأعمال.

بدا ذلك أمراً مستغرباً من امرأتين تنتميان إلى المذهب البيوريتاني في بلدة نرويجية صغيرة، بل إنه قد يبدو بحاجة إلى تفسير. إلّا أن أهل «بارليفوج» عثروا على التفسير في ورع الأختين وطيبتهما. فابنتا العميد المسن كانتا تنفقان وقتهما ومواردهما الضئيل في أعمال الخير،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يقرع مخلوق تعسٌ أو مفجوع بابهما وعاد خائباً. وكانت «بابِت» قد وقفت بذلك الباب قبل اثنتي عشرة سنة لاجئة بلا معين، يكاد الأسى والخوف يسلبانها عقلها.

لكن السَّبب الحقيقي لوجود «بابِت» في منزل الأختين، كان يكمن في ماضٍ أبعد، وفي غورٍ أعمق من نطاق قلوب البشر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(2)

عاشق «مارتين»

في صباهما، كانت «مارتين» و«فيليبًّا» فائقتي الجمال، نحو ما لأشجار الفاكهة المزهرة أو الثَّلج السَّرمدي من جمال خارق. لم تكونا من روَّاد المآدب أو الحفلات الراقصة أبداً، لكنهما كانتا تديران الرؤوس عند مرورهما في الشَّوارع، وارتاد شبَّان «بارليفوج» الكنيسة لمشاهدتهما وهما تجتازان الممر. كانت الأخت الصُّغرى تتمتع أيضاً بصوتٍ جميل، يملأ الكنيسة عذوبةً أيام الآحاد. كان الحبُّ الدنيوي، والزواج، في نظر رعية العميد، مسألتين تافهتين، لا تعدوان أن تكونا في حقيقتيهما سوى أوهام، ومع ذلك، فقد سبق لعدد من الإخوة المسنين أن ثمَّنوا الصَّبيتين بما هو أغلى من الياقوت، وعرضوا على والدهما الكثير للزواج بهما. لكن العميد أعلن أن ابنتيه، في دعوته، كانتا له بمثابة يديه اليمنى واليسرى. ومن ذا الذي قد يرغب بحرمانه منهما؟ نشأت الفتاتان الجميلتان على مَثل الحبِّ السَّماوي، كانتا مفعمتين به ولم تجيزا لنفسيهما أن يلفحهما لهب هذا العالم.

على ذلك، فقد كدَّرتا السَّلام في قلب سيدين من العالم الفسيح خارج «بارليفوج».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحدهما ضابط شاب يدعى «لورنس ليوفنهيلم»، الذي عاش حياة بهيجة في موقع الحامية العسكرية إلى أن وقع في الدَّيْن. في عام 1854، عندما كانت «مارتين» تبلغ ثمانية عشرة عاماً من العمر، و«فيليبًّا» سبعة عشر عاماً، أرسله والده الغاضب لزيارة عمته في منزلها الريفي القديم في «فوسوم» قرب «بارليفوج»، لمدة شهر، حيث سيحظى بالوقت الكافي ليفكّر مليّاً في سُبلٍ أفضل لحياته. دخل البلدة ذات يوم على صهوة جواده، والتقى «مارتين» في السُّوق. هوى ببصره نحو الفتاة الجميلة التي رفعت طرفها صوب الفارس الوسيم. عندما تجاوزته متوارية عن أنظاره، لم يعد واثقاً فيما إذا كان عليه أن يصدق ما رأته عيناه.

تناقلت عائلة «ليوفنهيلم» أسطورةً تقول إنه قبل أمدٍ طويل، تزوَّج سيد من «هولدر»، من روح جبل أنثوية نرويجية، فاتنة الجمال، إلى الحد الذي يجعل الهواء يتلألأ مرتعشًا من حولها. منذ ذلك الحين، بين فينةٍ وأخرى، امتلك عدد من أفراد العائلة القدرة على التَّنبؤ بالمستقبل. حتى الآن، لم يكن «لورنس» الشَّاب قد لمس في طبيعته أي موهبة روحية خاصَّة. لكنه في تلك اللحظة بالذَّات، تجلَّت أمام عينيه رؤيا مفاجئة وقوية لحياة أسمى، وأكثر نقاء، خلواً من الدائنين، أو رسائل السداد اللحوحة، أو المواعظ الأبوية. حياة دون أسرار أو وخزٍ بغيضٍ للضمير، وملاك رقيق، ذهبي الشَّعر، يَهديه ويُثيبه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حصل على الإذن لزيارة منزل العميد بواسطة عمته الورعة، ورأى أن «مارتين» كانت بعدُ أجملَ دون قبَّعة. تبع قدَّها الممشوق بعينين هائمتين، لكنه نفر من الصُّورة التي قدَّمها عن نفسه في القرب منها واحتقرها. صعقته الصدمة فلم يستطع العثور على ما يقوله قط، ولم يلهمه حتى كأس الماء الماثل أمامه.

قال عميد الكهنة: (يا إخوتي الأعزاء، الرحمة والصِّدق التقيا معًا. الاستقامة والغبطة تبادلتا القبل).

وكانت أفكار الشَّاب منصبَّة على اللحظة التي ينبغي فيها على «لورنس» و«مارتين» تبادل القبل. أعاد الزيارة مراراً، وفي كل مرة بدا يتضاءل ويصبح أكثر تفاهة وضِعَة أمام ذاته.

Telegram:@mbooks90

عندما عاد في المساء إلى منزل عمته، ركل جزمة الركوب اللماعة صوب زوايا غرفته، ثم وضع رأسه على الطاولة وانتحب.

في اليوم الأخير من إقامته قام بمحاولة أخيرة لبثِّ مشاعره لمارتين. حتى ذلك الحين كان من اليسير عليه البوح لفتاة جميلة بحبه، لكن الكلمات الرقيقة علقت في حنجرته عندما تأمّل وجه هذه العذراء. وهو يودّع الحفل، رافقته مارتين إلى الباب تحمل شمعة في يدها. شعَّ الضُّوء على فمها وقذف عالياً ظلال أهدابها الطويلة. كان على وشك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يغادر في يأس أبكم عندما أمسك بيدها بغتةً على العتبة وضغطها إلى شفتيه.

صاح قائلاً: (أنا راحلٌ إلى الأبد! سوف لن أراكِ ثانية أبداً، أبداً! لأني أدركتُ هنا أن القدر قاسٍ، وأن في هذا العالم توجد أشياء مستحيلة!)

عندما عاد إلى البلدة التي تقيم فيها حاميته العسكرية فكَّر ملياً في مغامرته، فوجد أن التفكير بها لم يرق له على الإطلاق. بينما أسهب الضُّباط الشُّبان الآخرون حديثاً عن علاقاتهم الغرامية، لم يفصح هو عن علاقته. لأنها، قياساً إلى هرج الضباط، وإذا جاز القول، كانت شأناً جديراً بالشَّفقة. كيف سمح ملازم من سلاح الفرسان لنفسه أن يقع مهزوماً خائباً إزاء ثلة أشخاص طائفيين كئيبي السُّحن، في غرف عارية الأرضيات في منزل عميد عجوز؟

باغته الخوف واستبدّ به ذعر مفاجئ؛ هل كان جنون عائلته هو الذي جعله لا يزال يحمل معه صورة أشبه بالحلم، لعذراء غاية في الجمال يشع الهواء من حولها بالنبل والقداسة؟ هو لم يشأ أن يغدو حالماً، أراد أن يكون كما صحبه الضباط. استعاد رباطة جأشه، فعقد العزم على نسيان ما جرى معه في «بارليفوج» باذلاً أقصى ما يستطيع من جهد في يفاعته. عقد العزم على المضي قدماً من الآن فصاعداً،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولن يلتفت وراءه. من الأفضل له أن يركز على حياته المهنية، وكان ينتظر اليوم الذي يصبح فيه شخصية بارزة لامعة في عالم متألق.

سُرَّت والدته بنتيجة زيارته إلى «فوسوم»، وعبَّرت في رسائلها عن امتنانها لعمَّته. لم تدرِ أي طرق غريبة وملتوية تلك التي أوصلت ابنها إلى موقفه الأخلاقي المبهج.

سرعان ما لفتَ الضَّابط الشَّاب الطَّموح انتباه رؤسائه وحقَّق تقدماً سريعاً على غير المعتاد. أُرسل إلى فرنسا وإلى روسيا، وعند عودته تزوَّج من إحدى وصيفات الملكة صوفيا. تقدَّم في هذه الأوساط الراقية برشاقة ويسر، مسروراً بمحيطه وبنفسه. حتى أنه على مرِّ الزمان، استفاد من كلمات وأساليب في التعبير كانت قد علقت في ذاكرته من منزل العميد، فالتدين الآن بات دارجاً في القصر.

في منزل «بارليفوج» الأصفر، كانت فيليبا تدير الحديث أحياناً صوب الشَّاب الوسيم الصَّامت الذي ظهر كما اختفى فجأة. حينذاك، كانت أختها الكبرى تجيبها بلطف، بوجه محبَّب ساكن الملامح، ثم تخترع مواضيع أخرى للحديث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(3)

عاشق فيليبا

بعد عام قدم شخص أكثر تميزاً من الملازم ليوفنهيلم إلى «بارليفوج».

شدا مغني باريس العظيم «أشيل بابِن» طوال أسبوع في دار الأوبرا الملكية في استوكهولم، وأثار حماسة جمهوره هناك كما فعل أينما حلّ. ذات مساء، وصفت له إحدى سيدات القصر، ممن حلُمن بقصة حب مع الفنَّان، جمال طبيعة النرويج الهائل. بطبعه الرومانسي، أثارته الحكاية، فعاد إلى فرنسا، متأنّياً، عبر السَّاحل النرويجي. إلا أنه شعر بالضَّآلة في البيئة السنِيَّة، ولمَّا لم يكن لديه من يشاركه الحديث، دهمته كآبة رأى نفسه فيها رجلاً عجوزاً في ختام مسيرته المهنية، حتى ذهب ذات يوم أحد، عندما لم يهده تفكيره إلى شيء أفضل يفعله، إلى الكنيسة ليسمع غناء فيليبا.

في لحظة فارقة أدرك كلَّ شيء. فالقمم المثلجة والزهور البرية وليالي الشمال البيضاء، بدت هنا مُترجمة إلى لغته الموسيقية، وزُفّت إليه في صوت امرأة شابة. تماماً كما حدث للورنس ليوفنهيلم عندما أبصر الرؤيا.

هجس في قلبه: (يا الله، يا تامّ القدرة، يا من لا حدَّ لقوتك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتطاول السَّحاب رحمتك! هنا مغنية الأوبرا الأولى التي ستجثو باريس راكعةً عند قدميها).

كان أشيل بابِن في هذا الوقت رجلاً وسيماً في الأربعين من عمره، له شعر أسود جعد وفم أحمر. لم يفسده شغف الجماهير به، كان شخصاً طيَّب القلب وصادقاً مع نفسه.

ذهب من فوره إلى المنزل الأصفر، قدَّم اسمه -الذي لم يعنِ للعميد شيئاً- وشرح أنه كان يقيم في «بارليفوج» كي يستعيد صحته، ولسوف يسعده، في هذه الأثناء، أن يتَّخذ من السَّيدة الشَّابة تلميذة له.

لم يذكر أوبرا باريس، لكنه وصف بإسهاب كم تُحسن الآنسة فيليبا صنعاً بذهابها للغناء في الكنيسة، لتمجيد الرب.

لوهلةٍ نسيَ نفسه، فعندما سأله العميد فيما إذا كان ينتمي إلى الطائفة الكاثوليكية رد بالإيجاب، والقس العجوز، الذي لم يرَ يوماً رجلاً كاثوليكياً على قيد الحياة، شحب وجهه بعض الشَّيء. مع ذلك كان العميد مسروراً بالتَّحدث بالفرنسية، التي ذكَّرته بأيام شبابه عندما درس أعمال الكاتب الفرنسي واللوثري العظيم «لوفيفر ديتابليه». ولمَّا لم يكن في وسع أحد مقاومة أشيل بابِن طويلاً إذا ما رغب بأمر من صميم قلبه، منحه الأب في آخر المطاف موافقته، وأشار إلى ابنته: (دروب الله تجري عبر البحر والجبال المكسوَّة بالثَّلج، حيث لا ترى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عين الانسان أثراً).

وهكذا شرع المغني الفرنسي العظيم والصَّوت النرويجي الشَّاب بالعمل معاً. بلغت آمال أشيل حدَّ اليقين، ويقينه أضحى نشوة. فكَّر: (كنت مخطئاً في الظن بدنو شيخوختي. أعظم انتصاراتي في انتظاري! سوف يؤمن العالم مرة أخرى بالمعجزات عندما نغني هي وأنا معاً!)

بعد حين لم يستطع الاحتفاظ بأحلامه لنفسه، فأخبر فيليبا بشأنها.

أخبرها بأنها سوف تصعد مثل نجمة وتتفوق على كبريات المغنيات سواء في الماضي أو في الحاضر. الامبراطور والامبراطورة، الأمراء، السَّيدات النبيلات وظرفاء باريس سوف يستمعون إليها وهم يذرفون الدُّموع. الناس العاديون أيضاً سوف يقدرونها، ولسوف تجلب العزاء والقوة للمظلومين والمضطهدين. وعند مغادرتها دار «الجراند أوبرا» ممسكة بذراع معلمها، سوف ينزع الجمهور عدَّة خيولها، ليجرّوا عربتها بأنفسهم إلى مطعم الـ« كافيه انجليه»، حيث ينتظرها عشاء رائع.

لم تُعِد فيليبا هذه التطلعات على مسمع والدها أو أختها، وكانت تلك أول مرة في حياتها تخفي فيها سراً عنهما.

منح الأستاذ تلميذته دور «زيرلينا» في أوبرا موزارت المسماة «دون جيوفاني» كي تحفظه. هو بنفسه غنَّى دور «دون جيوفاني» وهذا ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعله كثيراً في الماضي.

إلا أنه لم يغنِّ في حياته قط مثلما غنى الآن. في دويتو الفصل الثَّاني -الذي دعيَ بدويتو الإغواء- كان مأخوذاً كلياً بالموسيقى والأصوات المبهجة. مع تبدد آخر النغمات الشَّجية قبض على يدي فيليبا، جذبها إليه وقبَّلها بخشوع، كما يقبِّل العريس عروسه أمام المذبح. ثم تركها. كانت اللحظة على قدر عالٍ من العظمة لا يتسنّى معه إضافة أية كلمة أو حركة، كان موزارت نفسه يطلُّ من علٍ نحو الاثنين.

عادت فيليبا إلى البيت، وأبلغت والدها أنها لم تعد راغبة بالمزيد من دروس الغناء وطلبت منه أن يكتب إلى السَّيد بابِن ويخبره بذلك.

قال العميد: (دروب الله تجري عبر الأنهار أيضاً يا طفلتي).

عندما تسلَّم أشيل رسالة العميد جلس هامداً ساعة من الزمن. فكَّر: (لقد كنت مخطئاً. تصرّمت أيامي. لن أعود بعد اليوم أبداً بابِن الجليل. وروضة العالم الهزيلة العجفاء هذه خسرت عندليبها!)

استدرك بعد برهة: (ما عسى يكون الأمر مع تلك المرأة الفاجرة؟ أتُرى لأني قبلتها؟)

فكَّر في النهاية: (ها قد ضيّعتُ حياتي لقاء قبلة، ولا أتذكر شيئاً على الإطلاق عن القبلة! قبَّل دون جيوفاني زيرلينا، وأشيل بابِن دفع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثَّمن! يا لها من خاتمة للفنان!)

في منزل العميد شعرت مارتين أن المسألة كانت أعمق مما بدت عليه، وأمعنت النَّظر في وجه أختها. للحظة، ارتجفت بعض الشيء، هي أيضاً تخيلت أن ذلك السَّيد الكاثوليكي ربما حاول أن يقبِّل فيليبا. لم تتخيل أن أختها ربما كانت مروعة ومتفاجئة من شيء في سجيتها.

استقلَّ أشيل بابِن أول مركب مقلعاً عن «بارليفوج».

لم تتحدث الأختان عن هذا الزائر من العالم الواسع إلا نزراً يسيراً، كانت تعوزهما الكلمات للحديث عنه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(4)

رسالة من باريس

بعد خمسة عشر عاماً، في ليلة حزيرانية ماطرة من العام 1871، شُدَّ حبل جرس المنزل الأصفر بعنف ثلاث مرات. فتحت ربَّتا المنزل الباب لامرأة شديدة الشُّحوب، داكنة، بالغة الضخامة وعلى ذراعها صرَّة، حدَّقت بهما وتقدَّمت خطوة وانهارت على العتبة فاقدة الوعي. عندما أعادتها السَّيدتان الخائفتان إلى الحياة، جلست ورمقتهما بنظرة من عينيها الغائرتين، لم تنبس بكلمة طوال الوقت، تحسست ملابسها المبللة وأخرجت رسالة ناولتها لهما.

كانت الرسالة موجَّهة إليهما مباشرة، لكنها باللغة الفرنسية. وضعت الأختان رأسيهما معاً وقرأتا. كانت على الشَّكل التالي:

(أيتها السيدتان!

هل تتذكرانني؟ آه، عندما أفكِّر بكما يمتلئ قلبي بسوسن الوادي البري! هل يمكن لذكرى عهد رجل فرنسي أن تُلِّين قلبيكما لإنقاذ حياة امرأة فرنسية؟

اضطرت السَّيدة بابت إرسان، حاملة هذه الرسالة، للهرب من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باريس، مثلها في هذا مثل امبراطورتي الجميلة ذاتها. اندلعت حربٌ أهلية في شوارعنا. سفكت أيدٍ فرنسية دمًا فرنسيًا. رجال الكومونة النُّبلاء، تم سحقهم وإبادتهم بسبب تأييدهم لحقوق الانسان. زوج السَّيدة إرسان وابنها، وكلاهما كانا حلاقان للسيدات، شهيران، جرى رميهما بالرصاص. هي نفسها أوقفت بتهمة أنها «بترولوز، Pétroleuse» (وهي كلمة استعملت لدينا للإشارة إلى النساء اللواتي أضرمن النيران في المنازل بواسطة البترول)- ونجت بأعجوبة من يدي الجنرال «جاليفيه» الملطختين بالدماء. لقد فقدت كل ممتلكاتها ولم تجرؤ على البقاء في فرنسا.

لها ابن أخ يعمل طاهياً على متن سفينة «آنا كولبيورنسون»، المتَّجهة إلى «كريستيانيا» (التي أخال أنها عاصمة النِّرويج) وقد تحصَّل على فرصة لإرسال عمته على متنها. هذا الآن ملاذها الحزين الأخير!

جاءت إليَّ، لعلمها بسبق زيارتي لبلدكما الرائع، تسألني إن كان هناك من أناس طيبين في النرويج، ضارعة، إن كان الأمر كذلك، أن أزوِّدها برسالة لهم. كلمتا «أناس» و «طيبين» جلبتا في الحال أمام ناظري صورتكما التي أقدِّسها في قلبي. أُرسلها إليكما. لا أعلم كيف ستتمكن من الوصول من كريستيانيا إلى «بارليفوج»، وقد نسيتُ خارطة النرويج. لكنها امرأة فرنسية، وسوف تجدان أنها، على بؤسها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تزال تتمتع بروح المبادرة والجلال وصلابة حقيقية.

أنا أغبطها على بؤسها: سوف ترى وجهيكما.

عندما تستقبلانها بعطفكما، أرسلا جواباً رحيماً إلى فرنسا.

اغتمَّ قلبي طوال خمسة عشر عاماً، يا آنسة فيليبا، لأن صوتك لم يغمر يوماً أرجاء الـ «جراند أوبرا» في باريس. عندما أتخيلك الليلة، لا شكَّ محاطة بعائلة مبتهجة ومحبَّة، وأرى نفسي حزيناً، وحيداً ومنسياً من هؤلاء الذين صفَّقوا لي وأغرموا بي فيما مضى، أشعر أنك ربما أحسنت الاختيار في الحياة. ماهي الشُّهرة؟ ما هو المجد، والقبر ينتظرنا جميعاً؟!

ولو أني، يا زيرليناي المفقودة، ولو أني، يا سوبرانو الثَّلج! عندما أكتب هذا أحس بأن القبر ليس هو الخاتمة. فلسوف أسمع صوتك ثانية في الفردوس حتماً. هناك سوف تغنين، دون خوف أو وساوس، كما أراد الله لك أن تغني. هناك سوف تكونين الفنانة العظيمة التي أراد الله لك أن تكوني. آه! كم ستفتنين الملائكة.

بابِت تجيد الطهو.

تفضَّلا، يا سيدتيَّ، بتلقي التقدير المتواضع من الصَّديق الذي كان فيما مضى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشيل بابِن).

كانت الصفحة مذيلة بملاحظة تتضمن أول فاصلين موسيقيين من الدُّويتو الذي يجمع بين دون جيوفاني وزيرلينا، مطبوعين بأناقة، على الشَّكل التالي:

حتى ذلك الحين، كانت في خدمة الأختين فتاة صغيرة تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً تعمل في المنزل، وشعرتا أنهما ربما ليس في مقدورهما تحمل نفقة توظيف مدبرة منزل خبيرة أكبر سناً. لكن بابِت قالت لهما إنها سوف تخدم أناس السَّيد بابِن الطيبين مجَّاناً، وأنها لن تعمل في خدمة أي شخص آخر. وإذا طردتاها فسوف تموت حتماً. أقامت بابِت في منزل ابنتي العميد مدة اثنتي عشرة سنة، حتى زمن هذه الحكاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(5)

حياة هادئة

كانت بابِت قد وصلت منهكة وهائجة العينين، مثل حيوان مطارَد، لكنها في جوِّها الجديد والأليف، سرعان ما اكتسبت كلَّ سمات الخادمة المحترمة والأمينة. كانت قد جاءت لتكون متسولة، واتَّضح أنها فاتحة. كان لطلعتها الهادئة ونظرتها الثَّابتة العميقة، خصال جذَّابة، انتقلت الأشياء تحت ناظريها، دون صخب، نحو أماكنها الصحيحة.

للوهلة الأولى، ارتعدت ربَّتا عملها بعض الشَّيء، بالضبط مثلما فعل العميد سابقاً، تجاه فكرة استقبال شخص كاثوليكي تحت سقف بيته. لكنهما لم ترغبا في إزعاج مخلوق مبتلى بالاستجواب، ولا كانتا على يقين تام من قدرتهما على التَّحدث بالفرنسية. اتفقتا بصمت على أنَّ مثال الحياة اللوثرية الجيد قد يكون الوسيلة الفضلى لهداية خادمتهما. وهكذا أصبح حضور بابِت في المنزل، إذا جاز القول، حافزاً أخلاقياً للمقيمين فيه.

كان الشَّك قد خامرهما في توكيد السَّيد بابِن على قدرة بابِت على الطَّهو. سمعتا أنَّ الفرنسيين يأكلون الضَّفادع. علَّمتا بابِت طريقة تحضير سمك القدّ وحساء الخبز والمزَر، أثناء العرض العملي خلا وجه المرأة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفرنسية من أي تعبير على الإطلاق. لكن خلال أسبوع طهت بابِت سمك القدّ وحساء الخبز والمزر، مثلها في هذا، مثل أي شخص ولد وترعرع في «بارليفوج».

بعد ذلك، روَّعت فكرتا البذخ والإسراف الفرنسيْين وأفزعتا ابنتي العميد. في اليوم الأول بعد دخول بابت في خدمتهما، استدعتاها وشرحتا لها أنهما معدمتين وأنَّ البذخ في الطعام كان في نظرهما إثماً. ينبغي أن يكون طعامهما متواضعًا قدر الإمكان، دلَّت على ذلك دلاء الحساء والسِّلال المخصصة للمعوزين. أومأت بابِت برأسها، أعلمت سيدتيها أنها، قبل أن تتزوج، كانت تطهو طعام كاهن عجوز، كان قدّيساً. عندئذٍ عزمت الأختان على أن تبزَّا الكاهن الفرنسي في التقشُّف. وسريعاً وجدتا أن المصروف، منذ تولي بابِت أمور تدبير المنزل، كان ينخفض على نحو خارق، ودلاء الحساء والسِّلال اكتسبت قوَّة جديدة ملغزة، لتنعش الفقراء والمرضى، وتمنحهم القوة.

عرف العالم خارج المنزل الأصفر أيضاً براعة بابِت. لم تتعلَّم اللاجئة أبداً التَّحدث بلغة بلدها الجديد، لكنها، بلغتها النرويجية غير المتقنة حطَّمت أسعار تجَّار «بارليفوج» القساة. كانت مرهوبة الجانب على رصيف الميناء وفي ساحة السُّوق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعر الأخوة والأخوات المسنون، الذين نظروا بادئ الأمر بشكٍ وريبةٍ إلى المرأة الأجنبية في وسطهم، بتغيُّر سعيد في حياة أختيهم الصَّغيرتين، ابتهجوا له وانتفعوا منه. وجدوا أن المتاعب والهموم طردت، كما لو بسحر ساحر، من حياتهم، وأنهم الآن امتلكوا المال للتَّخلي عنه، والوقت لأسرار وشكاوى أصدقاءهم القدامى، والسَّلام للتأمل في مسائل سماوية. على مرِّ الزَّمان، أدرج عدد ليس بالقليل من الأخوة، اسم بابِت في صلواتهم، وشكروا الله على الغريبة الصَّامتة، «مرتا» السَّمراء في منزل عذراوتيهم الجميلتين، الحجر الذي رفضه البنَّاؤون صار حجراً للزاوية.

كانت سيدتا المنزل الأصفر الوحيدتين اللتين تعرفان أن حجر الزاوية خاصتهما امتلك قصَّة مفزعة وغامضة، كما لو أنه كان بوجه من الوجوه، على صلة بحجر مكَّة الأسود، الكعبة نفسها.

لم تشر بابِت إلى ماضيها أبداً، إلا فيما ندر. عندما في الأيام الأوائل، عزتها الأختان بلطف على خساراتها، قوبلتا بتلك الفخامة ورباطة الجأش اللتين كتب عنهما السَّيد بابِن. أجابت وهي تهز كتفيها: (ما باليد حيلة أيتها السيدتين؟ إنه القدر).

لكن ذات يوم، وعلى حين غرَّة، أطلعتهما على امتلاكها، منذ سنوات عديدة، لبطاقة في اليانصيب الفرنسي، وأن صديقاً أميناً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في باريس كان لا يزال يجددها من أجلها كلَّ عام. في وقت من الأوقات قد تفوز بالجائزة الكبرى، وقدرها عشرة آلاف فرنك. عند ذلك شعرتا بأنَّ حقيبة طاهيتهما القديمة كانت مصنوعة من بساط سحري، في لحظة ما قد تعتليه ليعيدها إلى باريس.

وقد حدث أن مارتين أو فيليبا لم تكونا لتحصلا على جواب عندما تتحدثان إلى بابِت، وقد تتساءلان فيما إذا سمعت قولهما أيضاً. كانتا تعثران عليها في المطبخ، مرفقاها على الطاولة، وصدغاها على يديها، مستغرقة في دراسة كتاب أسود ثقيل، ظنتا خفيةً أنه كتاب صلوات كاثوليكي. أو أنها قد تجلس ثابتة بلا حراك على كرسي المطبخ ثلاثي القوائم، يداها القويتان في حجرها، وعيناها القاتمتان مفتوحتان على اتساعهما، مبهمة ومشؤومة مثل «بيثيا» كاهنة معبد دلفي على حاملها ثلاثي القوائم. أدركا في مثل تلك اللحظات أن بابت كانت عميقة، وأنه في غور أعماق كينونتها كانت هناك أهواء، كانت هناك ذكريات وأشواق لم يعرفا عنها شيئاً على الإطلاق.

سرت رجفة باردة صغيرة فيهما، وفكَّرتا في قرارة قلبيهما: (ربما في آخر المطاف كانت بالفعل بترولوز).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(6)

حظ بابت السَّعيد

الخامس عشر من شهر كانون الأول يصادف الذكرى المئوية لميلاد العميد.

وابنتاه تتطلعان منذ وقت طويل إلى هذا اليوم وقد رغبتا بالاحتفال به، كما لو أنَّ والدهما العزيز لا يزال بين مريديه. لذلك كان الخصام والشِّقاق الذي يثور بين رعيّته، في هذه السَّنة المنصرمة، أمراً حزيناً وغامضاً بالنسبة إليهما. وهما تسعيان لصنع السَّلام، لكنهما كانتا مدركتين لإخفاقهما. كما لو أنَّ الهمَّة العالية المحبَّبة لشخصية والدهما كانت تتبدد، كما قد يتبخَّر دواء «هوفمان» المسكن للألم عندما يترك في قارورة مفتوحة على الرَّف. ورحيله ترك الباب مواربا لأمور لا تزال تجهلها، حتى الآن، الأختان الأصغر سناً بكثير من أبنائه الروحيين. قبل نصف قرن من الزمن، عندما كان الخروف الضَّال يجري شارداً في الجبال، حشر زوَّار متطفلين مشؤومين أنفسهم عبر الفرجة، على أعقاب المتعبِّدين، وبدا أنهم ينشرون الظلام في الغرف الصَّغيرة، ويسمحون بدخول البرد. جاءت خطايا الإخوة والأخوات المسنين، مع توبة متأخرة ثاقبة مثل وجع السِّن، وعادت خطايا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآخرين في حقهم باستياء مرير، مثل تسميم الدم.

كان في الرعيَّة سيدتان مسنتان شهَّرت إحداهما بالأخرى، قبل اهتدائهما، وبذلك دمَّرتا زواجاً وميراثًا لبعضهما البعض. في الوقت الحالي ليس في وسعهما تذكُّر حوادث أمس أو أسبوع فائت، لكنهما تذكَّرتا هذه الإساءة البالغ عمرها أربعون عاماً، ولم تنقطعا عن التَّحدث في القصص العتيقة، عبستا دوماً في وجه بعضهما. كان هناك أخ عجوز تذكَّر فجأة كيف غشَّه أخ آخر، قبل خمس وأربعين سنة في صفقة، ربما حاول طرد المسألة من تفكيره، لكنها علقت هناك مثل شظية متقيحة وعميقة الجذور. كان هناك ربَّان سفينة شريف وأشيب الشَّعر، وأرملة تقيَّة متغضِّنة الملامح، كانت تجمعهما علاقة غرامية في شبابهما، بينما كانت زوجة لرجل آخر. مؤخَّراً أخذ كل واحد منهما يشعر بالحزن، بينما يزيح ثقل الإثم عن كتفيه إلى كتفي الآخر ويستعيده ثانية، ويجزع من العواقب المريعة المحتملة، التي ستعود عليه إلى الأبد، التي ابتلاه بها شخص قد تظاهر بمحبته. امتقع وجهيهما في اجتماعات المنزل الأصفر وتجنَّبا النَّظر في عيني بعضهما البعض.

مع اقتراب عيد الميلاد، شعرت مارتين وفيليبا بتعاظم ثقل المسؤولية. هل يمكن أن ينظر الوالد المخلص يوماً إلى ابنتيه ويناديهما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالاسم باعتبارهما مضيفتين مجحفتين؟ تناقشتا في الموضوع ورددتا قول والدهما: (إنَّ مسالك الرب كانت تجري حتى عبر البحر المالح، والجبال المكسوَّة بالثلج، حيث لا تبصر عين الانسان أثراً).

ذات يوم من أيام فصل الصَّيف هذا وصلت بالبريد رسالة من فرنسا، إلى السَّيدة بابت إرسان. كان هذا في حدِّ ذاته أمراً مفاجئاً، لأن بابِت طوال هذه السَّنوات الاثنتي عشرة لم تتلقَّ أيَّ رسالة. تساءلت ربَّتا البيت: ماذا يمكن أن تحوي؟ دخلتا بها إلى المطبخ لتشهدا على فتحها وقراءتها. فتحتها بابِت، قرأتها، رفعت عينيها عنها نحو وجهي سيدتيها وأخبرتهما إن رقم بطاقة اليانصيب الفرنسي خاصتها قد ربحت. لقد كسبت عشرة آلاف فرنك.

كان للنبأ وقع عظيم على الأختين حتى أنهما طوال دقيقة كاملة لم تنبسا ببنت شفة. هما اعتادتا على تسلُّم منحتهما الصغيرة على أقساط صغيرة، كان من الصَّعب عليهما أيضاً أن تتخيلا مبلغ عشرة آلاف فرنك في كدسة أوراق مالية. ثم ضغطتا على يد بابِت، ترتجف أيديهما بعض الارتجاف. لم يسبق لهما أن ضغطتا على يد شخص امتلك للتو عشرة آلاف فرنك.

أدركتا بعد حين أن ما يجري من أحداث يعنيهما مثلما يعني بابِت على حدٍّ سواء. شعرتا أن فرنسا بكلد، كانت تنتصب رويداً رويداً أمام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفق خادمتهما، وبصورة توافقية كان وجودهما يغرق تحت أقدامهما. العشرة آلاف فرنك التي جعلت منها امرأة ثرية -إلى أي حدٍّ ما- لم تتسبب بإفقار المنزل الذي خدمته! بدأت أشياء منسية ومخاوف تختلس النظر إليهما واحدة تلو الأخرى، من أركان المطبخ الأربعة. ماتت التَّهاني على شفاههما، وشعرت المرأتان المتدينتان بالخزي من صمتهما.

أذاعتا خلال الأيام التالية النبأ لأصدقائهما بوجهين مبتهجين، لكن كان مفيداً لهما أن تريا الحزن يعتلي وجوه هؤلاء الأصدقاء فيما هم يستمعون إليهما. كان ملموساً في الأخوية، أنه لا يمكن لأحد أن يلقي باللائمة على بابِت حقاً. تعود الطيور إلى أعشاشها، والناس إلى مسقط رأسهم. لكن هل تدرك تلك الخادمة الطيبة والأمينة، أنها في الذَّهاب بعيداً عن «بارليفوج» قد تخلِّف وراءها الكثير من المسنين والفقراء في ضيق؟ سوف لن يكون لدى أختيهم الصغيرتين المزيد من الوقت للمرضى والحزانى. بالفعل، بالفعل، كان اليانصيب شأنًا آثمًا.

وصل المال في حينه عبر مكاتب في «كريستيانيا» و «بارليفوج». ساعدت السيدتان بابِت في عدِّه، وقدمتا لها صندوقاً لحفظه. تعاملتا مع قصاصات الورق المشؤومة وتآلفتا معها.

لم تجرؤا على سؤال بابِت عن موعد رحيلها. هل جرُأتا على امتلاك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمل في أنها قد تظل معهما بعد الخامس عشر من شهر كانون الأول؟

لم تكن ربتا المنزل على يقين تام أبداً من القدر الذي تتبعه الطاهية، أو فهمته من محادثتهما السِّرية. لذا كانتا متفاجئتين عندما دخلت بابِت ذات مساء من شهر أيلول إلى غرفة الاستقبال، بتواضع أو خضوع لم تعهداه في أي وقت مضى فيها، لتطلب خدمة. استعطفتهما، طالبة منهما السَّماح لها بأن تعد عشاءً احتفالياً في ذكرى ميلاد العميد.

لم يكن في نيَّة السَّيدتين إقامة مأدبة عشاء على الإطلاق. كان طعام عشاء متواضع للغاية مع فنجان من القهوة، هو الوجبة الأكثر سخاء مما دعتا إليه يوماً أي ضيف كان. لكن كانت عينا بابِت الداكنتان ملهوفتين ومبتهلتين مثل عيني كلب، اتفقتا على السَّماح لها أن تفعل ما تشاء. وعندها أشرق وجه الطاهية.

لكنها كانت ترغب في قول المزيد. قالت إنها أرادت أن تعدَّ عشاءً فرنسياً، عشاءً فرنسياً حقيقياً، لمرة واحدة فقط. التفتت مارتين وفيليبا إلى بعضهما البعض. لم تعجبهما الفكرة؛ شعرتا أنهما لا تعرفان ما قد تنطوي عليه. لكن غرابة الطَّلب نفسه أفحمتهما. لم يكن لديهما من حجج تواجهان بها مقترح طهو عشاء فرنسي حقيقي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنهَّدت بابِت تنهيدة ابتهاج طويلة، لكن مع ذلك لم تأت حراكاً. كان لديها رجاء آخر. توسَّلت أن تسمح لها ربتا عملها بدفع ثمن العشاء الفرنسي من نقودها.

هتفت السيدتان: (لا بابِت!) كيف تمكنتْ أن تتخيل مثل هذا الأمر؟ هل تصدق أنهما قد تسمحان لها بإنفاق نقودها الثمينة على الطعام والشَّراب -أو عليهما؟ لا بابِت، فعلاً.

تقدَّمت بابت خطوة إلى الأمام. كان هناك شيء مهيب في الحركة، مثل موجة ترتفع. هل خطت إلى الأمام هكذا، عام 1871، لتغرس علماً أحمر على المتراس؟ تحدَّثت بلغتها النرويجية الغريبة، ممزوجة بفصاحة فرنسية كلاسيكية. كان صوتها مثل أغنية.

أيتها السَّيدتان! هل سبق لها أن طلبت، خلال اثنتي عشرة سنة، منكما أية خدمة؟ لا! ولم لا؟ أيتها السيدتان، أنتما اللتان تتلوان صلواتكما كلَّ يوم، هل يمكنكما أن تتخيلا ما يعنيه لقلب بشري ألا يمتلك صلاة ليتلوها؟ ما الذي قد تكون بابِت مضطرة لأن تصلي من أجله؟ لا شيء! هذه الليلة كان لديها صلاة لتتلوها، من صميم قلبها. ألا تشعران إذن، هذه الليلة، يا سيدتيّ، أنه يليق بكما أنتما أن تمنحانها مثل الفرح الذي منح الله القدير لكما صلواتكما؟

لم تنبس السَّيدتان بكلمة إلى حين. كانت بابِت محقَّة، كان ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طلبها الأول خلال هذه السَّنوات الاثنتي عشرة، ومن المرجح كثيراً أن يكون هو الأخير. فكَّرتا في المسألة. قالتا لنفسيهما في آخر الأمر، إن طاهيتهما كانت الآن أيسر حالاً منهما، ولا يمكن لعشاء أن يحدث فرقاً لمن كسب عشرة آلاف فرنك.

غيرت موافقتهما في النهاية بابِت كلياً. رأتا أنها كانت جميلة في شبابها. وتساءلتا فيما إذا، في هذه الساعة، لم تكونا للمرة الأولى، بالنسبة لها «الأناس الطيبون» الذين تحدَّث عنهما أشيل بابِن في رسالته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(7)

السلحفاة

في شهر تشرين الثَّاني ذهبت بابِت في رحلة.

قالت لربتي عملها إنَّ هناك استعدادات ينبغي عليها القيام بها، وقد يتوجَّب عليها المغادرة لأسبوع أو عشرة أيام. كان ابن أخيها، الذي سبق أن أوصلها إلى «كريستيانيا»، لا يزال يبحر إلى تلك البلدة، لا بدَّ أن تراه وتتباحث معه في بعض الأمور. كانت تجربة بابِت مع الإبحار سيئة، كانت قد تحدثت عن رحلتها البحرية، من فرنسا إلى النِّرويج، باعتبارها التجربة الأكثر رعباً في حياتها. أما الآن، فهي رابطة الجأش على نحو مستغرب، شعرت السيدتان أن قلبها بات الآن في فرنسا.

عادت بعد عشرة أيام إلى «بارليفوج».

سألت السَّيدتان: هل سوِّيت الأمور بحسب مشيئتكِ؟

أجابت: نعم. لقد التقت بابن أخيها، وأعطته قائمة بالسِّلع التي سيجلبها لها من فرنسا.

كان هذا لمارتين وفيليبا قولاً مشؤوماً، لكنهما لم تهتما بالتَّحدث عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رحيلها، لذا لم تطرحا عليها مزيداً من الأسئلة.

كانت بابت عصبية المزاج إلى حدٍّ ما خلال الأسابيع التالية. لكنها ذات يوم من شهر كانون الأول أعلنت بانتصار لربّتيها أن السِّلع التي وصلت إلى «كريستيانيا»، ونقلت عن طريق البحر إلى هناك، وصلت في هذا اليوم بالذات إلى «باريفوج». وأضافت أنها كلفت عجوزاً بنقلها من المرفأ إلى المنزل بواسطة عربة يد.

سألت السَّيدتان: أي سلع يا بابِت؟

أجابت بابِت: عجباً، يا سيدَتي، المكونات من أجل وليمة عيد الميلاد. ليتمجد اسمُ الله، وصلت جميعها في حالة جيدة من باريس.

في هذا الوقت، مثل جني معبأً في زجاجة من الحكاية الخيالية، انتفخت بابِت وأخذت أبعادها، حتى أن ربتيها شعرتا بالضآلة أمامها. هما الآن تشاهدان العشاء الفرنسي قادماً إليهما، أمر ذو طبيعة وغنىً ليسا في الحسبان. ولما لم يسبق لهما أن حنثتا بوعد في حياتهما، سلَّمتا نفسيهما ليدي طاهيتهما.

مع ذلك، عندما رأت مارتين عربة يد محمَّلة بالقوارير تدفع إلى المطبخ، تجمَّدت في مكانها. مسَّت الزجاجات ورفعت واحدة.

سألت بصوت منخفض: (ماذا يوجد في هذه الزجاجة يا بابِت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أليس نبيذاً؟)

أجابت بابِت: (نبيذ، سيدتي! لا سيدتي. إنه «كلوس فوجوت» 1846!) أضافت بعد لحظة: (من فيليبي، في شارع مونتورجويل!)

لم يخطر لمارتين يوماً بأن النبيذ قد يمتلك أسماءً، فالتزمت الصَّمت.

في ساعة متأخرة من المساء، رنَّ جرس الباب وفتحته، وكانت في مواجهة عربة اليد مرة أخرى، هذه المرة كان يقودها صبي بحَّار أحمر الشَّعر -بدا أن الرجل العجوز كان مرهقاً حينئذٍ، ابتسم لها الشَّاب ابتسامة عريضة وهو يرفع غرضاً كبيراً يصعب تحديده من عربة اليد. بدا في ضوء المصباح يشبه حجراً أسود ضارباً إلى الخضرة، لكن عندما وضعه على أرضية المطبخ، أخرج فجأة رأساً أفعوانياً وحركه قليلاً من جانب إلى آخر. سبق لمارتين أن رأت صوراً للسلاحف، وعندما كانت طفلة اقتنت سلحفاة أيضاً، لكن هذا الشيء كان هائل الحجم ومشاهدته مروِّعة. انسحبت من المطبخ دون أن تنبس بكلمة.

جرؤت على عدم إخبار أختها بما رأته. وأمضت الليل بطوله تقريباً ساهدة، فكَّرت في والدها، وشعرت أنهما في عيد ميلاده بالذَّات، كانت هي وأختها تهبان منزله لإقامة اجتماع للسَّحرة. عندما وافاها النَّوم أخيراً رأت حلماً فظيعاً، رأت فيه بابِت تسمِّم الأخوة والأخوات المسنين، وهي وفيليبا معها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهضت باكراً في الصَّباح، ارتدت عباءتها الرمادية وخرجت إلى الشَّارع المظلم. سارت من منزل إلى منزل، أفضت بمكنونات قلبها لإخوتها وأخواتها، واعترفت بذنبها. قالت إنها وفيليبا لم تقصدا التسبب بأي أذى، لقد منحتا خادمتهما صلاة، ولم تتنبآ بما قد ينجم عنها. الآن لا يمكنها أن تعرف ما قد يقدم لضيوفها من مأكل ومشرب، في عيد ميلاد والدها. في الحقيقة، هي لم تذكر السُّلحفاة، لكنها أطلّت في ملامحها وفي نبرة صوتها.

كما رُوي سابقاً، عرف الأناس المسنين جميعاً مارتين وفيليبا منذ نعومة أظفارهما، لقد رأوهما تبكيان بمرارة على دمية مكسورة. استدرت دموع مارتين الدمع من عيونهم. ثم تجمعوا في الأصيل وتحدثوا بشأن المشكلة.

قبل أن يتفرَّق شملهم ثانية، تعاهدوا أنهم في سبيل الأختين الصَّغيرتين، في اليوم العظيم، سوف يلتزمون الصَّمت حول كل ما يتعلق بالطعام والشَّراب، وليس لأى شيء يوضع أمامهم، حتى لو كان ضفادع أو أفاعي، أن ينتزع كلمة من شفاههم.

قال أخ ذو لحية بيضاء: (اللسان عضو صغير، ويتبجَّح بأمور عظيمة، فلا يقدر رجل أن يروِّض اللسان، إنه شيطان صعب المراس، مشبع بسم قاتل. لكننا في يوم معلمنا سوف نطهِّر ألسنتنا من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل مذاق وننقيها من كل بهجة أو تقزز من الحواس، نحافظ عليها وندَّخرها من أجل الأمور الأسمى: التسبيح والشُّكر).

لم يحدث إلا شيء قليل جداً من الأمور في العيش الوادع لأخوية «بارليفوج»، حتى أنهم كانوا عند هذه اللحظة متأثرين بعمق ومتشامخين. تصافحوا على عهدهم كما لو أنهم يفعلون في حضرة معلمهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(8)

التَّرنيمة

بدأت تثلج صباح يوم أحد. هطلت النُّدف البيضاء سريعة وسميكة، اكتست ألواح المنزل الأصفر الزجاجية الصَّغيرة بالثلج.

في وقت مبكِّر من النَّهار جلب سائس خيل من «فوسوم» مكتوباً للأختين. لا تزال السَّيدة ليوفنهيلم العجوز تقطن في منزلها الريفي. كانت الآن في التِّسعين من عمرها وصمَّاء تماماً، كما فقدت معها حاستي الشَّم والتَّذوق. لكنها كانت واحدة من أوائل مؤيدي العميد، ولم يكن عجزها أو رحلة المزلجة ليمنعانها من تكريم ذكراه. كتبت، أن ابن أخيها الجنرال لورنس ليوفنهيلم جاء الآن على نحو غير متوقع لزيارتها، لقد تحدَّث بتوقير عميق عن العميد، وطلبت الإذن لتصحبه معها. لأن هذا قد يكون مفيداً له، لأن الفتى العزيز بدا نوعاً ما مكتئباً.

تذكَّرت مارتين وفيليبا عندها الضَّابط الشَّاب وزياراته، خفَّف من قلقهما الراهن التَّحدث عن أيام سعيدة غابرة. كتبتا رسالة جوابية مفادها أن الجنرال ليوفنهيلم مرحَّب به. هما أيضاً استدعتا بابِت لإعلامها أن عدد الحضور قد يبلغ الآن اثنا عشر شخصاً على العشاء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أضافتا أن ضيفهما الأخير أقام في باريس لعدة سنوات. بدت بابِت مسرورة بالنبأ، وأكدَّت لهما أنه سيكون هناك قدر كاف من الطعام.

أنهت المضيفتان استعداداتهما الصَّغيرة في غرفة الجلوس. لم تجرؤا على أن تطآ بأقدامهما أرض المطبخ، فبابِت عثرت لنفسها بغموض على طاه من سفينة في المرفأ -أدركت مارتين أنه الفتى نفسه، الذي جلب السُّلحفاة- لمساعدتها في المطبخ، وليساعد في الخدمة على الطاولة، والآن ها هي المرأة الداكنة والفتى ذو الشَّعر الأحمر، مثل ساحرة والجني الملازم لها، يستوليان على هذه المناطق. لم تتمكن السَّيدتان من معرفة أي نيران كانت تحترق أو أي مراجل تبقبق هناك، قبل انبلاج الفجر.

بطريقة سحرية كُويت بياضات المائدة ولمعت الأطباق، جُلبت كؤوس ودوارق، بابِت وحدها عرفت من أين. لم يمتلك منزل العميد اثنا عشر كرسي مائدة، نقلت الأريكة الطويلة المكسوَّة بشعر ذيل الفرس من الردهة إلى غرفة الطعام، والردهة التي كانت مفروشة على نحو هزيل، بدت الآن دونها عارية بغرابة وشاسعة.

بذلت مارتين وفيليبا قصارى جهودهما لتزيين المجال الذي ترك لهما. مهما تعددت المتاعب التي قد تكون بانتظار ضيوفهما، ليس عليهما في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي حال من الأحوال أن تكونا باردتين، طوال النهار غذَّت الأختان الموقد القديم الضَّخم بعقد من خشب البتولا. علَّقتا إكليلاً من العرعر حول صورة والدهما على الجدار، ووضعتا شمعدانات على طاولة عمل والدتهما الصَّغيرة، أحرقتا تحتها غصينات من شجر العرعر كي تعبق الغرفة برائحة ذكيَّة. في هذه الأثناء تساءلتا إن كان بمقدور المزلجة القادمة من «فوسوم» أن تتمكن من الوصول. في النهاية ارتدتا أفضل ما لديهما من عباءات قديمة سوداء، وصليبيهما الذهبيين من حفل سر التثبيت خاصتهما. جلستا، طوتا أيديهما في حجريهما وفوَّضتا أمرهما إلى الله.

Telegram:@mbooks90

وصل الإخوة والأخوات المسنون في ثلل صغيرة ودخلوا الغرفة بتؤدة ومهابة.

كانت هذه الغرفة المنخفضة بأرضيتها العارية وأثاثها الهزيل عزيزة على أتباع العميد. خارج نوافذها ينبسط العالم العظيم. مرئي من الداخل هنا، كان العالم العظيم في بياضه الشتوي محدداً دوماً بألوان الزهري والأزرق والأحمر على نحو ظريف، بصفٍّ من زهور «الياقوتية/ الهايسنت» على عتبات النَّوافذ. وفي الصَّيف، عندما كانت النوافذ مفتوحة، كان للعالم العظيم إطار متحرك برفق من ستائر الموسلين الأبيض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الليلة التقى الضُّيوف على درجة الباب برائحة عذبة ودافئة، وكانوا يتحرون وجه معلمهم العزيز، المكلل بخضرة مستديمة. ذابت قلوبهم مثل أصابعهم الخدرة.

أنشد واحد من الأخوة الطاعنين في السِّن، بعد بضع لحظات من الصَّمت، بصوته المتهدِّج، إحدى ترنيمات المعلم:

(أورشليم، يا اسم بيتي السَّعيد

عزيزة عليّ أبداً...)

فرادى، اندمجت الأصوات الأخرى، أصوات النساء المرتعشة الرقيقة، دمدمة عميقة من الإخوة قدامى البحارين، وفوقهم جميعاً صوت فيليبا السوبرانو النفيس، ولو أنه بلي قليلاً مع تقدمها في السِّن لكنه لا يزال ملائكياً. عن غير قصد أمسك أفراد الجوقة بأيدي بعضهم البعض. أنشدوا الترنيمة حتى منتهاها، لكنهم لم يطيقوا التوقف واشتركوا في غناء ترنيمة أخرى:

(لا تهتموا قائلين

ماذا نأكل أو ماذا نلبس...)

اطمأنت ربتا المنزل نوعاً ما، وكلمات المقطع الثَّالث دخلت دون استئذان قلب مارتين وبعثت فيه الأمل:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(أم أي إنسان منكم إذا سأله

ابنه خبزًا يعطيه حجرًا؟...)

في وسط هذه الترنيمة كانت أجراس مزلجة تسمع في الخارج، وصل الضَّيفان من «فوسوم».

خرجت مارتين وفيليبا لاستقبالهما ورافقتاهما إلى الرُّدهة. أصبحت السَّيدة ليوفنهيلم مع تقدمها في السِّن ضئيلة الحجم إلى حدٍّ بعيد، وجهها شاحب مثل جلد الكتابة الرقيق، وهامد للغاية. بجانبها الجنرال ليوفنهيلم، طويل القامة، عريض المنكبين، ومتورد اللون، في بدلته المتألقة، صدره المغطى بالأوسمة، اختال وتلألأ مثل طائر للزينة، طائر التَّدرج الذهبي أو طاووس، في هذه الكوكبة الرزينة من غربان سوداء وعقاعق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(9)

الجنرال ليوفنهيلم

كان الجنرال ليوفنهيلم يقود المزلجة من «فوسوم» إلى «بارليفوج» في حالة نفسية غريبة. لم يزر هذا الجزء من البلاد منذ ثلاثين عاماً. كان قد جاء الآن ليستريح من حياته الحافلة في البلاط الملكي، ولم يعثر على الراحة. كان المنزل القديم في «فوسوم» مطمئناً بما فيه الكفاية، وبدا صغيراً على نحو مثير للشفقة، قياساً إلى قصر تويلري والقصر الشَّتوي. لكنه احتوى شخصية واحدة مقلقة: دخل الملازم الشَّاب ليوفنهيلم غُرْفه. ورأى الجنرال ليونفيلهم الهيئة النحيلة الوسيمة تغادره. وعندما عبر، رمق الفتى الرجل العجوز بنظرة سريعة وابتسامة؛ الابتسامة المغرورة المزهوَّة التي يمنحها الشَّاب للمسن. أمكن للجنرال أن يبتسم له بلطف وببعض الحزن، كما يبتسم المسنُّ للشاب، لولا أنه حقاً لم يكن في حالة نفسية تسمح له بالابتسام، كان مكتئباً، كما كتبت عمته.

حظي الجنرال ليوفنهيلم بكل ما كافح من أجله في الحياة، وكان الجميع ينظرون إليه بإعجاب وحسد. غير أنه عرف حقيقة غريبة، تنافرت مع عيشه الرغيد: أن سعادته كانت منقوصة. كان هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطب ما في مكان ما، وقد تلمَّس حنايا نفسه بدقَّة في كل مكان، كما يتلمَّس المرء إصبعاً ليحدد مكان شوكة مستحكمة غير مرئية. كان يحظى بشعبية كبيرة في الأسرة الملكية، كان قد أبلى بلاء حسناً في مهنته، وكان يحظى بأصدقاء في كل مكان. لم تكن الشَّوكة في أي من هذه الأمكنة.

كانت زوجته امرأة متألقة ولا تزال تتمتع بحسن المظهر. ربما أهملت منزلها قليلا لصالح زياراتها وحفلاتها، بدَّلت خدمها كل ثلاثة أشهر ووجبات طعام الجنرال في البيت لم تقدَّم في حينها. هنا شعر الجنرال، وكان الطعام الجيد موضع تقديره الكبير في الحياة، ببعض المرارة تجاهَ السَّيدة. لامها في السِّر على التُّخمة التي عانى منها أحياناً. ومع ذلك لم تكن الشَّوكة هنا أيضاً.

Telegram:@mbooks90

كلا، لكن أمراً سخيفاً كان يحدث مؤخراً للجنرال ليونفيلهم: كان ليجد نفسه مهتمَّاً بشأن روحه المخلَّدة. هل امتلك أي سبب يدعوه لفعل ذلك؟ كان شخصاً أخلاقياً، مخلصاً لملكه وزوجته وأصدقائه، قدوة للجميع. لكن مرَّت عليه لحظات بدا له أن العالم لم يكن هماً أخلاقياً، بل مبهماً. نظر في المرآة، يتفحَّص صفَّ الأوسمة على صدره وتنهَّد قائلاً لنفسه: (باطل الأباطيل، الكل باطل!)

كان اللقاء الغريب في «فوسوم» قد دفعه للقيام بحساب ختامي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لحياته.

كان الشَّاب لورنس ليوفنهيلم قد اجتذب أحلاماً وتخيُّلات مثلما تجتذب الزهرة النَّحل والفراشات. كان قد قاتل ليتحرر منها، هرب وتبعته. كان متخوِّفاً من أسطورة العائلة «هولدر» وقد تمنَّع عن قبول دعوتها لدخول الجبل، رفض بحزم منحة القدرة على التنبؤ بالمستقبل.

وجد لورنس ليونفيلهم الكهل نفسه يتمنى أن يتحقق حلم واحد صغير من أحلامه، أن تظهر له عثَّة الغسق الرمادية قبل حلول الظلام. وجد نفسه يتوق لملكة رؤية المستقبل، كما قد يتوق الضَّرير للقدرة العادية على الرؤية.

هل يمكن أن تكون جملة الانتصارات في سنوات كثيرة وفي بلاد متعددة هزيمة؟ كان الجنرال ليونفيلهم قد لبَّى أمنيات الملازم وحقَّق أكثر مما طمح إليه. ربما كان يظن أنه كسب العالم برمته. وقد آلت الأمور إلى هذا، أن الرجل الجليل، الأكبر سناً، الخبير بالحياة التفت الآن إلى الشخص الشَّاب السَّاذج ليسأله، بوقار، بل بمرارة، ما الذي كسبه؟ كان هناك أمر مفقود في مكان ما.

عندما حدَّثت السَّيدة ليوفنهيلم ابن أخيها عن ذكرى ميلاد العميد وأقنعته بالذَّهاب معها إلى «بارليفوج»، لم يكن قراره مجرد قبول عادي لدعوة على العشاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عزم على أنه قد يسوِّي حسابه هذه الليلة مع لورنس لوينهيلم الشَّاب، الذي كان قد شعر بنفسه أنه شخص نجول وآسف في منزل العميد، والذي في الختام نفض الغبار عن حذاء الركوب خاصته. سوف يسمح للشاب أن يثبت له، مرة وإلى الأبد، أنه منذ إحدى وثلاثين سنة اتخذ الخيار الصَّائب. يجب استدعاء الغرف الواطئة السُّقوف، سمك الحدُّوق، وكأس الماء على الطاولة جميعها أمامه لتكون دليلاً على أنه في وسطها، حينها سوف يصبح وجود لورنس ليوفنهيلم قريباً جداً، شقاءً صرفاً.

هو يبيح لعقله أن يشرد بعيداً. كان في باريس قد كسب مرة سباقاً للخيل وكرِّم من قبل ضباط فرنسيين من سلاح الفرسان، من بينهم أمراء ونبلاء من أعلى المراتب. كان قد أقيم عشاء على شرفه في أفخر مطعم في المدينة. قبالته إلى الطاولة جلست سيدة نبيلة، جميلة ذائعة الصِّيت، كان يتودَّد إليها طويلاً. خلال العشاء رفعت عيناها الداكنتين المخمليتين من فوق حافة كأس الشَّمبانيا ووعدت أن تسعده دون أن تنبس بكلمة. في المزلجة تذكر بغتة أنه رأى حينئذ، لثانية، وجه مارتين أمامه وقد نبذه. لفترة أصغى إلى رنين أجراس المزلجة، ثم ابتسم قليلاً عندما تأمَّل كيف سوف يتوصل هذه الليلة إلى الإمساك بخيوط المحادثة التي ستدور إلى الطاولة نفسها التي جلس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليها لورنس الشَّاب صامتاً.

انهمرت ندف ثلجية كبيرة بكثافة، انطمست الآثار سريعاً خلف المزلجة، جلس الجنرال ليونفيلهم جامد الحركة إلى جانب عمته، غرقت ذقنه في ياقة معطفه الفرائية الطويلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(10)

عشاء بابت

عندما فتح رفيق بابِت ذو الشَّعر الأحمر باب غرفة الطَّعام، واجتاز الضُّيوف العتبة بتؤدَّة، تركوا أيدي بعضهم البعض وصمتوا. لكن الصَّمت كان عذباً، لأنهم روحياً كانوا لا يزالون ممسكين بأيدي بعضهم البعض، وينشدون.

كانت بابِت قد وضعت صفاً من الشُّموع وسط الطَّاولة، تلألأت ألسنة اللهب الصَّغيرة على المعاطف السَّوداء والعباءات، وعلى البدلة القرمزية الوحيدة، وانعكست في عيون صافية نديَّة.

رأى الجنرال ليوفنهيلم وجه مارتين في ضوء الشَّمعة، كما سبق أن رآه عندما افترق الاثنان، قبل ثلاثين عاماً. أية آثار تركت عليه ثلاثين سنة من حياة «بارليفوج»؟ الشَّعر الذَّهبي يخطُّه الآن الشَّيب، الوجه شبيه الوردة كان قد تحول ببطء إلى مرمر. لكن كم كانت الجبهة صافية، وكم كانت العينان واثقتان بطمأنينة، وكم نقي وعذب هو الفم، كما لو أن ما من كلمة متهورة عبرت شفتيه مطلقاً.

بعدما جلس الجميع، تلا أكبر الأعضاء سناً صلاة المائدة بكلمات العميد نفسه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ليكن طعامي حافظاً لجسدي،

ليكن جسدي سنداً لروحي،

لتكن روحي محمدةً وكلمة

تشكر الربَّ على كلِّ شيء).

عند كلمة «طعام» تذكَّر الضُّيوف، ورؤوسهم المسنَّة مائلة على أيديهم المطويَّة، كيف أقسموا على عدم التفوُّه بكلمة حول الموضوع، وفي قلوبهم عزَّزوا العهد: سوف لن يفكروا بالأمر! كانوا جالسين لتناول وجبة طعام، حسناً، هذا ما فعله النَّاس في عرس قانا الجليل. والنعمة اختارت أن تتجلى هناك، في النبيذ نفسه، تامة كما في أي مكان آخر.

ملأ فتى بابت كأساً صغيرة أمام كل واحد من الحضور. رفعوها إلى شفاههم بوقار، مصادقين على قرارهم.

الجنرال ليوفنهيلم، متشككاً بعض الشَّيء من نبيذه، تناول منه رشفة مجفلاً، رفع الكأس أولاً إلى أنفه، من ثم إلى عينيه، ووضعه مذهولاً. فكَّر: (هذا غريب للغاية! أمونتيلادو! وأفخر أمونتيلادو تذوقته على الإطلاق). بعد لحظة، رغبة في اختبار حواسه، تناول ملء ملعقة صغيرة من حسائه، ثم ملء ملعقة ثانية، ووضع ملعقته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال لنفسه: (هذا في منتهى الغرابة! لأني بالتأكيد أتناول حساء السُّلحفاة، ويا له من حساء!) كان يستحوذ عليه نوع غريب من الرعب، وأفرغ كأسه.

لم يتحدث النَّاس في «بارليفوج» عادة كثيراً أثناء تناولهم الطعام. لكن بطريقة ما، هذا المساء، كانت الألسنة طليقة. روى أخ عجوز قصَّة لقائه الأول بالعميد. تحدَّث آخر عن تلك الموعظة التي أدَّت قبل ستين عاماً إلى هدايته. ذكَّرت امرأة عجوز، تلك التي أسرَّت لها مارتين أولاً بما تشعر به من ضيق، أصدقاءها كيف كان أي واحد من الأخوة أو الأخوات مستعداً في كل مصاب لمشاركة أي شخص آخر همومه.

روى الجنرال ليوفنهيلم، الذي كان ليشرف على المحادثة إلى طاولة العشاء، كيف كانت مجموعة عظات العميد كتاباً أثيراً عند الملكة. لكنه التزم الصَّمت عندما قدِّم طبق جديد.

قال لنفسه: (لا يصدَّق! إنه «بليني ديميدوف»!)

نظر إلى الجالسين من حوله. كانوا يأكلون بهدوء شديد طبق البليني ديميدوف، دون ما ينبئ عن مفاجأة أو عن استحسان على حد سواء، كما لو أنهم كانوا يفعلون ذلك كل يوم طيلة ثلاثين عاماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخت جالسة إلى الجهة الأخرى من الطاولة، فتحت موضوع الحوادث الغريبة التي كانت تقع عندما كان العميد لا يزال بين ظهراني أبنائه، وأي واحدة منها قد تغامر بدعوتها بالمعجزة. سألت إذا ما تذكروا تلك الفترة عندما وعد بعظة عيد الميلاد في القرية التي تقع على ضفَّة الزقاق البحري الأخرى؟ كان الطقس سيئاً للغاية طوال أسبوعين حتى أنه ما من ربان سفينة أو صياد سمك كان ليخاطر بالعبور. كان القرويون قد أخذوا يفقدون الأمل، لكن العميد قال لهم إنه، إن لم يجد مركباً ليقله، سوف يأتي إليهم سيراً على الأمواج. وشاهدوا! قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد توقَّفت العاصفة، حلَّ صقيع شديد، والزقاق البحري تجمَّد من الشَّاطئ إلى الشَّاطئ، وهذا كان أمراً لم يسبق حدوثه بقدر ما يمكن لإنسان أن يتذكر!

Telegram:@mbooks90

أعاد الفتى ملء الكؤوس مرة أخرى. عرف الأخوة والأخوات هذه المرة أن ما يقدَّم لهم من شراب ليس بنبيذ، لأنه تلألأ. لا بد أن يكون نوعاً من الليمونادة. تناغمت الليمونادة مع حالتهم العقلية المفخَّمة وبدت أنها ترفعهم عن الأرض، نحو حيِّز أسمى وأكثر نقاء.

وضع الجنرال ليوفنهيلم كأسه ثانية، التفت نحو الجالس عن يمينه وقال له: (لكن بالتأكيد هذا «فوف كليكو 1860»؟) نظر جاره نحوه بلطف، ابتسم له وقال شيئاً عن الطقس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان فتى بابِت مزوداً بتعليمات، اكتفى بملء كؤوس أعضاء الأخوية مرَّة واحدة فقط، لكنه أعاد ملء كأس الجنرال كلَّما أفرغه. أفرغه الجنرال بسرعة مرة تلو أخرى. فكيف لرجل عاقل أن يتصرَّف عندما لا يستطيع أن يثق بحواسه؟ إنه لمن الأفضل أن تكون ثملاً على أن تكون غاضباً.

كثيراً ما يشعر الناس في «بارليفوج» خلال تناول وجبة جيدة ببعض الثِّقل. لم يكن الأمر كذلك هذه الليلة. خفَّ الضُّيوف وزناً وتخففوا من الهم كلما أكثروا من الطَّعام والشراب. أدركوا أنهم لم يعودوا بحاجة إلى تذكير أنفسهم بعهدهم، ما إن يتخلى الانسان بحزم عن جميع أفكار الطعام والشراب ولا يكتفي بنسيانها كلياً، حتى يأكل ويشرب بمزاج صائب.

Telegram:@mbooks90

توقَّف الجنرال ليوفنهيلم عن تناول الطَّعام وجلس بلا حراك. مرة أخرى كان عائداً إلى ذلك العشاء في باريس الذي فكَّر فيه في المزلجة. قدِّم هناك طبق نادر وسائغ بشكل لا يصدق، كان قد سأل عن اسمه الشَّخص الذي يشاركه طعام العشاء، الكولونيل جاليفيه، وكان الكولونيل قد أخبره مبتسماً أنه يدعى « كاييه ان ساركوفاج».

كان قد أخبره، فضلاً عن ذلك، أن الطبق من ابتكار رئيس طهاة المقهى نفسه الذي كانا يتناولان فيه الطعام، شخص معروف في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميع أرجاء باريس باعتباره أعظم طهاة العصر نبوغاً، والأكثر إثارة للمفاجأة أنها امرأة!

قال الكولونيل جاليفيه: (وبالفعل، هذه المرأة تحول الآن عشاء في الـ «كافيه انجليه» إلى نوع من علاقة غرامية؛ إلى علاقة غرامية من صنف نبيل ورومانسي لا يعود المرء يميز فيها بين الشَّهية الجسدية والروحية أو التخمة! لقد تبارزت، قبل الآن، في مبارزة في سبيل سيدة جميلة. لأنه لا توجد امرأة في باريس كلها، يا صديقي الشَّاب، قد أسفك دمي من أجلها عن طيب خاطر!) التفت الجنرال ليونفيلهم نحو الجالس عن يساره وقال له: (لكن هذا «كاييه ان ساركوفاج»!) نظر إليه الجار الذي كان يصغي إلى وصف معجزة، غافل الذهن، ثم أومأ برأسه وأجاب: (نعم، نعم، بلا شك. وماذا يمكن أن يكون سوى ذلك؟)

من آيات المعلِّم، انتقل الحديث الدَّائر حول الطاولة، إلى أعاجيب أصغر حجماً، من رأفة ومساعدة قدمتهما ابنتاه يومياً. اقتبس الأخ الأكبر سناً الذي انطلق بغناء الترنيمة في البداية، قول العميد:

(الأشياء الوحيدة التي قد نأخذها معنا من حياتنا على الأرض هي تلك التي نتخلى عنها!)

ابتسم الضُّيوف -يا للعوانس المتواضعات المعدمات اللاتي قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصبحن مترفات في العالم الآخر!

لم يعد الجنرال ليونفيلهم يعجب من أي شيء. بعد بضع دقائق، عندما رأى أمامه العنب والدُّراق والتِّين الطَّازج، ضحك لجاره الجالس قبالته إلى الطاولة وقال: (عنبٌ جميل!)

أجاب جاره: "(وَأَتَوْا إِلَى وَادِي أَشْكُولَ، وَقَطَفُوا مِنْ هُنَاكَ زَرَجُونَةً بِعُنْقُودٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعِنَبِ، وَحَمَلُوهُ بِالدُّقْرَانَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ)".

عندئذٍ شعر الجنرال أنَّ الوقت قد أزِف ليلقي بخطبة. نهض ووقف باستقامة شديدة.

لم يقف شخص آخر سواه إلى طاولة العشاء ليتحدث. رفع المسنون أبصارهم إلى الوجه المشرف عليهم، في حالة من التَّرقب السَّعيد والعالي. كانوا معتادين على رؤية البحارة والمتشردين في حالة من السُّكر الشَّديد إثر احتساء الجن القوي الذي يصنع في البلاد، لكنهم لم يعتادوا في محارب ونديم للملوك الثمالة النَّاجمة عن شرب أنبل نبيذ في العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(11)

خطاب الجنرال ليوفنهيلم

قال الجنرال: (الرَّحمة والحقيقة، يا أصدقائي، التقتا سويةً، الاستقامة والغبطة سوف تتبادلان القبل).

تحدَّث بصوت صاف دُرِّبَ في الميادين العسكرية، وقد تردد بعذوبة في قاعات ملكيَّة، ومع ذلك كان أسلوبه في الحديث، في نظره، جديداً للغاية ومؤثراً على نحو غريب جداً، حتى أنه بعد عبارته الافتتاحية كان عليه أن يتوقَّف. لأنه كان معتاداً على صياغة خطبه بعناية، واعياً لغرضه، لكن هنا، في وسط رعية العميد المتواضعين، كانت هيئة الجنرال ليونفيلهم بالكامل، وصدره المغطَّى بالأوسمة، كما لو أنها كلها محض فمٍ لرسالة كان يفترض إبلاغها.

قال الجنرال ليوفنهيلم: (الانسان، يا أصدقائي، ضئيلٌ وأحمق. قيل لنا جميعاً في السَّابق، إن النِّعمة موجودة في الكون. لكن في حماقتنا البشرية وقصر نظرنا نتخيل إنَّ النِّعمة المقدَّسة محدودة. لهذا السَّبب نرتجف...) حتى ذلك الوقت لم يسبق للجنرال أبداً أن أعلن عن ارتجافه، كان متفاجئاً بصدق، بل مصدوماً لسماع صوته وهو يصرح عن الحقيقة. (نحن نرتجف قبل اتخاذ خيارنا في الحياة، وبعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن نفعل ذلك، نرتجف ثانية خوفاً من أن نكون قد اتخذنا الخيار الخاطئ. لكن اللحظة تأتي عندما تنفتح أعيننا، ونرى وندرك أن النعمة لا حدود لها. لا نتطلب النعمة، يا أصدقائي، منَّا شيئاً سوى أن ننتظرها بثقة، ونعترف بها بامتنان. النِّعمة، أيها الأخوة، لا تضع شروطاً، ولا تميز أياً منا على وجه الخصوص، تضمُّنا النعمة جميعاً إلى صدرها، وتصرح عن عفو عام. انظروا! ذلك الذي اخترناه أعطي لنا، وما رفضناه هو أيضاً في الوقت نفسه، ممنوح لنا. نعم، ذلك الذي نبذناه هو مصبوب علينا بغزارة. لأن الرحمة والحقيقة التقتا سوية، والاستقامة والغبطة تبادلتا القبل!)

لم يفهم الأخوة والأخوات خطاب الجنرال بكليته، لكن بوجهه الرزين والملهَم وصوت كلمات عزيزة ومعروفة، استولى على القلوب، وأثَّر بها جميعاً. بهذا الشَّكل، بعد واحد وثلاثين عاماً، نجح الجنرال ليوفنهيلم في الإمساك بخيوط المحادثة إلى طاولة عشاء العميد.

ما حدث لاحقاً في المساء، لا يَذكُر هنا أي شيء مؤكد. لم يمتلك أي من الضُّيوف لاحقاً أي ذكرى واضحة عنها. هم فقط عرفوا أن الغرف كانت مفعمة بنور سماوي، كما لو أن عدداً من هالات صغيرة امتزجت في شعاع واحد بهي. نال المسنون الصموتون منحة الألسنة، آذان، كانت لسنوات صماء تقريباً انفتحت عليها. الزمن نفسه اندمج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأبد. بعد وقت طويل من منتصف الليل شعَّت نوافذ المنزل مثل الذهب، وأغنية ذهبية ملأت الهواء الشتوي.

المرأتان المسنتان اللتان شهّرتا فيما مضى ببعضهما البعض، عبرتا الآن في قرارة قلبيهما، شوطاً طويلاً، إلى زمن سابق على الحادثة الشّرِيرة اللتين كانتا متشبثتين بها، إلى تلك الأيام في فترة صباهما المبكرة عندما كانتا تحضِّران معاً للاحتفال بسرِّ التثبيت، وملأتا الطرقات بالغناء يداً بيد في أرجاء «بارليفوج». أخ في الرعية ضرب آخر في أضلاعه، مثل عناق خشن بين اثنان من الفتية، وصرخ: (لقد خدعتني بتلك الأخشاب، أيها الشَّقي المسن!) كاد الأخ المخاطب ينهار في انفجار مبهج بالضَّحك، لكن الدُّموع فاضت في عينيه. أجاب: (نعم، فعلت ذلك، يا أخي الحبيب، لقد فعلت ذلك). وجد الربان «هالفورسن» والسيدة «اوبجوردن» فجأة نفسيهما متقاربين في زاوية يقبّل أحدهما الآخر تلك القبلة الطويلة للغاية، التي من أجلها لم تغادرهما أبداً علاقة الحب السرية الملتبسة في شبابهما.

كان معشر العميد المسن أناسًا متواضعين. عندما فكروا في وقت لاحق من الحياة بهذه الأمسية، لم يخطر أبداً لأي واحد منهم أنهم قد كانوا ممجدين بفضيلتهم. أدركوا أن النعمة المطلقة التي تحدَّث عنها الجنرال ليوفنهيلم كانت مقدَّرة لهم، ولم يضعوا حتى هذه الحقيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موضع سؤال، لأنها لم تكن سوى التتمة لأملٍ حاضر أبداً. تحللت أوهام هذه الأرض العقيمة أمام أعينهم مثل الدُّخان، وكانوا قد رأوا الكون كما هو في الواقع. لقد منحت لهم ساعة من العصر الألفي السَّعيد.

كانت السَّيدة ليوفنهيلم العجوز أول المغادرين. رافقها ابن أخيها، ومضيفتيهما أضاءتا لهما الطريق إلى الخارج. بينما كانت فيليبا تساعد السَّيدة العجوز في ارتداء عباءاتها العديدة، أمسك الجنرال يد مارتين واستبقاها وقتاً طويلاً، دون أن ينبس بكلمة.

قال أخيراً: (لقد كنت معكِ كل يوم من أيام حياتي. أنت تعلمين، ألا تعلمين أن هذا ما كان عليه الحال؟)

قالت مارتين: (نعم، أعلم أنه كان كذلك).

وواصل: (وسوف أكون معك كل يوم بقي لي في الحياة. سوف أجلس كل مساء، إن لم يكن بالجسد، الذي لا يعني شيئاً، فبالروح، التي هي كل شيء، لأتعشَّى معك، تماماً مثل هذه الليلة. لأني هذه الليلة تعلمت، يا أختي العزيزة، أنه كل شيء ممكن في هذا العالم).

قالت مارتين: (نعم، هو كذلك، يا أخي العزيز، كل شيء ممكن في هذا العالم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى هذا افترقا.

عندما تفرَّق شملهم أخيراً كان هطول الثَّلج قد توقَّف. تكللت البلدة والجبال بسناء أبيض خارق للعادة، والسَّماء كانت مرصَّعة بآلاف النُّجوم. كان الثَّلج في الشَّارع يمتدُّ عميقاً للغاية، حتى أن السَّير أصبح متعذراً. ترنَّح الزوار من المنزل الأصفر على أقدامهم، متمايلين، جلسوا فجأة، أو سقطوا قدماً على ركبهم وأيديهم، وكانوا مكسوين بالثَّلج، كما لو أن ذنوبهم غسلت بالفعل وأضحت بيضاء كالصوف، وفي هذا الرداء البريء المستعاد كانوا يطفرون مرحاً مثل حملان صغيرة. كان كل واحد منهم سعيداً أن يُضْحي طفلاً صغيراً، كانت أيضاً أضحوكة مباركة أن تشاهد الأخوة والأخوات المسنين، الذين كانوا يأخذون أنفسهم على محمل الجد، في هذا النوع من الطفولة الثانية السَّماوية. تعثَّروا ونهضوا، ساروا أو وقفوا بسكون، جسدياً وروحياً على حدٍّ سواء، يداً بيد، في لحظات يمثلون السلسلة العظيمة من راقصين مطوَّبين بسعادة لا حدود لها.

تردد من كل صوب: (ليباركك الله، ليباركك الله)، مثل صدى لتناغم الأفلاك.

وقفت مارتين وفيليبا لفترة طويلة من الوقت على الدَّرج الحجري خارج المنزل. لم تشعرا بالبرد.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت فيليبا: (النجوم تزداد اقتراباً).

قالت مارتين بهدوء: (سوف تقترب كل ليلة. من المرجح إلى حدٍّ بعيد أنها لن تثلج ثانية).

مع ذلك كانت مخطئة في هذا. بعد ساعة بدأت تثلج ثانية، ويا له من هطل ثلجي غزير لم يعهد من قبل أبداً في «بارليفوج». صباح اليوم التالي لم يستطع الناس دفع أبوابهم إزاء ركام الثلج المرتفع إلا بالكاد. كانت نوافذ المنازل مكسوَّة بالثلج على نحو كثيف، قيل لسنوات تلت فيما بعد، إن الكثير من مواطني البلدة الصَّالحين لم يدركوا أن النهار قد طلع، بل ناموا حتى وقت متأخر في الأصيل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(12)

الفنانة العظيمة

عندما أقفلت مارتين وفيليبا الباب، تذكَّرتا بابت. اجتاحتهما موجة صغيرة من العطف والشَّفقة: بابِت بمفردها لم تحظ بحصَّة من نعيم الأمسية. لذا ذهبتا إلى المطبخ، وقالت مارتين لبابِت: (كان عشاء لطيفاً للغاية يا بابِت).

فجأة امتلأ قلبيهما بالامتنان. أدركا أن أحداً من ضيوفهما لم ينبس ولو بكلمة عن الطَّعام. بالفعل، لم يتمكنوا من تذكر أي من الأطباق التي قدمت لهم، مع محاولتهم ذلك ما في وسعهم. تذكَّرت مارتين السَّلحفاة. لم تظهر على الإطلاق، والآن بدت مبهمة للغاية وبعيدة، كان جائزاً تماماً أنها لم تكن شيئاً سوى كابوس.

جلست بابِت على لوح التقطيع، محاطة بعدد من القدور والمقالي السَّوداء المدهنة، فاق ما رأت ربتا عملها في حياتيهما. كانت شاحبة ومنهكة جداً، كما كان حالها ليلة ظهورها للمرة الأولى عندما أغمي عليها على عتبة بابهما.

بعد وقت طويل نظرت مباشرة إليهما وقالت: (عملت فيما مضى طاهية في مطعم «كافيه انجليه»).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت مارتين ثانية: (كان عشاءً لطيفاً في اعتقاد الجميع)، وعندما لم تجب بابِت بكلمة، أضافت: (جميعنا سوف نتذكَّر هذه الأمسية عندما تعودين إلى باريس، يا بابِت).

قالت بابت: (أنا لست بعائدة إلى باريس).

هتفت مارتين: (لست عائدة إلى باريس؟)

قالت بابِت: (لا، ماذا سوف أفعل في باريس؟ جميعهم رحلوا. لقد خسرتهم جميعاً، يا سيدتي).

ذهبت أفكار الأختين إلى السَّيد إرسان وابنه، وقالتا: (أوه، يا بابِت المسكينة).

قالت بابِت: (نعم، رحلوا جميعاً، الدوق مورني، الدوق ديكازيه، الأمير ناريشكين، الجنرال جاليفيه، أورليان سكول، بول دارو، الأميرة بولين! جميعهم!).

الأسماء الغريبة وألقاب الأشخاص الذين فقدتهم بابِت شوشت السَّيدتين على نحو باهت، لكن كان في إعلانها بعدٌ مأساوي مطلق، ذلك أنهما في حالتهما العقلية المتجاوبة، شعرتا بخسارتها كما لو أنها خسارتهما، وفاضت عيونهما بالدَّمع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند نهاية فترة أخرى طويلة من الصَّمت، ابتسمت بابِت قليلاً لهما فجأة وقالت: (وكيف لي أن أعود إلى باريس، يا سيدتي؟ لا أملك مالاً).

صرخت الأختان في آن: (ما من نقود؟)

قالت بابت: (لا).

سألت الأختان في لهاث مروِّع: (لكن العشرة آلاف فرنك؟)

قالت بابت: (العشرة آلاف فرنك أنفقت يا سيدتي).

جلست الأختان. لدقيقة كاملة لم تتمكنا أن تتفوها بحرف.

همست مارتين على مهل: (لكن عشرة آلاف فرنك؟)

قالت بابِت بعزة نفس عظيمة: (ماذا في يدنا أن نفعل يا سيدتي؟ قد يكلف عشاء لاثني عشر شخصاً في مطعم الـ كافيه انجليه عشرة آلاف فرنك).

ما زالت السَّيدتان لم تعثرا على كلمة لتقولانها. استغلق عليهما فهم النبأ، لكن من ناحية ثانية كانت كثير من الأمور هذه الليلة، بشكل أو بآخر، عصية على الفهم.

تذكَّرت مارتين حكاية رواها أحد أصدقاء والدها، كان في بعثة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبشيرية في إفريقيا. لقد أنقذ حياة الزوجة الأثيرة لزعيم عجوز، أولَ الزعيم على شرفه وجبة فاخرة ليظهر امتنانه. فقط، وبعد وقت طويل من ذلك، علمت البعثة من خادمه الأسود أن ما قدمه كان حفيداً بديناً صغيراً للزعيم، طهي على شرف الطبيب المسيحي العظيم. ارتجفَت، غير أن قلب فيليبا كان يذوب في صدرها. بدا أن أمسية لا تنسى كانت لتختتم بدليل مشهود على الوفاء الإنساني والتضحية بالذَّات.

Telegram:@mbooks90

قالت برقَّة: (عزيزتي بابِت، لم يكن عليك أن تقدمي كل ما تملكين من أجلنا).

رمقت بابِت ربَّتها بنظرة عميقة وغريبة. لم يكن في عمقها ما ينمُّ عن شفقة، بل ازدراء.

أجابت: (من أجلكما؟ لا. بل من أجلي).

نهضت عن لوح التقطيع ووقفت أمام الأختين.

قالت: (أنا فنانة عظيمة!)

انتظرت هنيهة، من ثم كررت: (أنا فنانة عظيمة يا سيدتيّ).

مجدداً ساد المطبخ صمت عميق لوقت طويل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم قالت مارتين: (إذن سوف تكونين معدمةً الآن طوال حياتك، يا بابِت؟)

قالت بابت: (معدمة؟) ابتسمت كما لو لذات نفسها. (لا، سوف لن أكون يوماً معدمة. قلت لك أنا فنانة عظيمة. الفنانون العظماء، يا سيدتي، لا يكونون فقراء أبداً. لدينا شيء، يا سيدتي، لا يعرف الآخرون عنه شيئاً).

بينما لم تجد الأخت الكبرى ما تقوله، تذبذبت في قلب فيليبا عميقاً، حبالٌ منسية. لأنها سمعت، منذ فترة طويلة سابقة، عن الـ «كافيه انجليه». لقد سمعت قبل الآن، منذ وقت طويل، أسماء قائمة بابِت المأساوية. نهضت وتقدَّمت خطوة من خادمتها. قالت: (لكن كل هؤلاء الناس الذين ذكرتهم، هؤلاء الأمراء والشَّخصيات العظيمة في باريس الذين سميتهم، يا بابِت؟ أنت نفسك قاتلت ضدهم. كنت مؤيدة للكومونة! الجنرال الذي ذكرته قتل زوجك وابنك! كيف يمكنك أن تحزني عليهم؟)

لاقت عينا بابِت الداكنتين عيني فيليبا.

قالت: (نعم، كنت مؤيدة للكومونة. الشُّكر لله، كنت مؤيدة للكومونة! وهؤلاء الناس الذين ذكرتهم، يا سيدتي، كانوا أشراراً وقساة. هم تركوا أهل باريس يتضورون جوعاً، اضطهدوا الفقراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واعتدوا عليهم. الشُّكر لله، وقفت على متراس، حملت السِّلاح لجماعتي من الرجال! لكن مع ذلك، يا سيدتي، سوف لن أعود إلى باريس، الآن وهؤلاء الناس الذين تحدثت عنهم لم يعودوا هناك).

وقفت ثابتة، غارقة في أفكارها.

قالت أخيراً: (كما تريان، يا سيدتي، هؤلاء الأشخاص انتموا إلي، كانوا أهلي. نفقة تربيتهم وتدريبهم، فاقت نفقة تربيتكما وتدريبكما، يا سيدتي الصَّغيرتين، هل يمكنكما يوماً أن تتخيلا أو تعتقدا، أن تفهما أي فنانة عظيمة أنا. استطعت أن أسعدهم. عندما بذلت قصارى جهدي، تمكَّنت من جعلهم سعداء، بكل ما للكلمة من معنى).

توقفت مؤقتاً لهنيهة.

سألت فيليبا: (هل كان هذا هو الحال مع السَّيد بابِن أيضاً، مع السَّيد بابِن؟)

قالت بابِت: (نعم، مع السَّيد بابِن، يا سيدتي المسكينة، قال لي هذا بنفسه، «إنه لأمر رهيب ولا يطاق بالنسبة لفنان، أن يتم تشجيعك وأن يهلل لك استحساناً على أداء يأتي ثانياً في ترتيب الأفضلية، في كافة أنحاء العالم تمضي صرخة طويلة من قلب الفنان: امنحني الفرصة لأبذل قصارى جهدي!»)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدَّمت فيليبا من بابِت، ولفتها بذراعيها. شعرت بجسد الطاهية مثل
Telegram:@mbooks90
تمثال رخامي بالقرب من جسدها، لكنها اهتزت وارتجفت من رأسها حتى أخمص قدميها.

لفترة من الزمن لم تستطع الكلام، ثم همست:

(ولكن هذه ليست النهاية! أشعر، يا بابِت، أن هذه ليست النهاية. سوف تكونين في الفردوس الفنانة العظيمة التي أراد لك الله أن تكونين! آه!) وأضافت والدموع تجري على خديها: (آه، كم سوف تخلبين لبَّ الملائكة!)

كارين بلكسِن هي كاتبة وروائية دانماركية كانت تكتب تحت اسم مستعار هو إسحق دنسن، وقد كتبت أعمالها باللغات الدانماركية والفرنسية والإنجليزية. ولدت في 17/4/1885 وتوفيت في 7/9/1962.

نشرت قصة (وليمة بابت) لأول مرة عام 1958 ضمن مجموعة قصصية بعنوان (نوادر القدر).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة:

Telegram:@mbooks9

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner